مقام الاحسان

للاستاذ عبد المنصف محمود عبد الفتاح
واعظ مركز شبين القناطر

الاحسان فضيلة من أجل فضائل الانسان ، وخصلة من خصال أهل التقى والعرفان وهو قسمان : الاول : الاحسان بمعنى التفضل والانعام .. فاذا فعل الانسان الواجب عليه نحو ربه وبنى جنسه وزاد عليه كان ذا فضل عظيم على نفسه ، حيث أنصفها وأحسن اليها باخلاصه وقيامه بعمله ، ولم يظلمها بتعريضها لغضب الله وسخطه قال الله تعالى : « **ان أحسنتم احسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها** » وقال جل شأنه : **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** » .. وعلى الناس جميعا ، لاسدائه الجميل اليهم بوحى ضميره الحر فضلا منه وكرما ، وسمى ما أتى به زيادة عن الواجب من عمل البر والخير مع الافراد والجماعات احسانا .

وقد فسر النبى صلى الله عليه وسلم الاحسان بما جاء فى حديث جبريل عليه السلام حين سأله عنه بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » .. فاذا راقب العبد ربه فى جميع شئونه ، وكل أحواله ، وملأ قلبه بهيبته وجلاله ، حتى كأنه يشاهده .. لم يترك شيئا مما يقدر عليه : من الخشوع والخضوع وحسن السمت ، الا أتى به ، ولذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعبد الله فى جميع أحوالك ، كعبادتك فى حال العيان » وذلك بان يكون الانسان حالى كونه فى عبادة الله ، مثل كونه رائيا له . وعن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال : « أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم : أن أخشى الله كأنى أراه ، فان لم اكن أراه فانه يرانى » . وفى حديث حارثة المشهور أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : « يا حارثة كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا ، قال : انظر ما تقول ، فان لكل قول حقيقة فما حقيقة ايمانك ؟ قال : يارسول الله عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى واظمأت نهارى ، وكأنى أنظر الى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر الى أهل الجنة فى الجنة كيف يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر الى أهل النار فى النار كيف يتعاوون فيها ! قال : عرفت فالزم عبدا نور الله بالايمان قلبه » وخطب عروة بن الزبير الى ابن عمر ابنته وهما فى الطواف فلم يجبه .. ثم لقيه بعد ذلك فاعتذر اليه وقال : « كنا فى الطواف نتخايل الله بين أعيننا » وهذا ما يعرف بمقام المشاهدة .. ولم يزد أحد فى تحقيقها على قول أبى عثمان المكى : انها أنوار التجلى على القلب بدون تخلل انقطاع ، فان القلب اذا دام فيه التجلى بدون تخلل غفلة استمر نهاره أبدا من غير

ليل ، كالليلة الظلماء تصير بتوالى البرق كالنهار.» أوحى الله الى داود عليه السلام : « يا داود انى خلقت قلوب المحبين المشتاقين من رضوانى ، ونعمتها بنور وجهى ، فجعلت أبدانهم موضع نظرى الى الارض ،وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به الى ، يزدادون فى كل يوم شوقا الى » .

ثم ان فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « فان لم تكن تراه فانه يراك » اشارة الى أن من شق عليه أن يعبد الله كأنه يراه ، فليعبده على ان الله يراه، فيستحى من نظره اليه . كما روى عن معاذ رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم أوصاه لما بعثه الى اليمن فقال : « استحى من الله كما تستحى من رجل ذى هيبة من أهلك » وعن أبى امامة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم وصى رجلا فقال له : « استحى من الله استحياءك من رجلين من صالحى عشيرتك لا يفارقانك » وقال بعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين اليك . وقال بعض السلف : من عمل لله على المشاهدة فهو عارف، ومن عمل على مشاهدة الله اياه فهو مخلص .. قال أبو عثمان المكى : قال لى أبو حفص : اذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك ، فانهم يراقبون ظاهرك ، والله رقيب على باطنك » ويروى ان الله تعالى قال لملائكته : « أنتم موكلون بالظاهر ، وأنا الرقيب على الباطن » وقال محمد بن على الترمذى : اجعل مراقبتك لمن لاتغيب عن نظره اليك ، واجعل شكرك لمن لاتنقطع نعمه عليك ، واجعل طاعتك لمن لاتستغنى عنه، واجعل خضوعك لمن لاتخرج عن ملكه وسلطانه . وهذا ما يعرف بمقام المراقبة .. فكل من يعمل عملا وهو يعتقد بأن الله مطلع عليه وناظر اليه كان مراقبا له تعالى ، ولذا قيل : المراقبة هى علم العبد باطلاع الرب عليه واستدامته لذلك ، وهى أصل كل خير ، ولا يوصل اليها الا بعد المحاسبة الشديدة ، فاذا حاسب العبد نفسه على السالف ، وأصلحها فى الوقت ولزم الحق وحفظ الأنفاس : راقب الله فى كل أحواله ، فيعلم أن عليه رقيبا ، ومن قلبه قريبا ، يعلم أحواله ، ويرى أفعاله ، ويسمع أقواله ، قال تعالى : « **ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد . اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد** » وقال جل شأنه : « **وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه** » وسئل بعض العارفين عن قول الله تعالى : « **رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه** . فقال : معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده » وفقنا الله لما فيه الخير والسداد بمنه وكرمه وفضله واحسانه

(عبد المنصف محمود عبد الفتاح)